



أم داود امرأة بألف رجل، كبيرة في العمر، جليلة في القدر، مؤمنة بربها، صايرة على قدره، رابطة الجأش، ثابتة الفؤاد، لا تستطيع الكلمات احتواء المشاعر والمعاني التي تغمرك عندما تلهاها، مبتسمة بشوشة، لا أبالغ إن قلت أن مدى إيمان هذه المرأة بربها يشبه إيمان الصحابيات الجليلات كأم سلمة والخنساء مع فارق الصحبة لهن رضي الله عنهن ورضي عنها وأثابها بما بذلت أعلى الجنان .

تسارعت بنا السيارة بين السهول منطلقة نحو مخيمات اللاجئين السوريين في (بخشين) بإنطاكيا في مناظر تسرب الفؤاد بروعتها فسبحان خالقها خضرة وغابات وجبال متوجة بالعمائم البيضاء .. في منظر يواسي النفس لولا سماع أعداد الشهداء تتزايد ورنات الهاتف التي تحمل لنا أخبار الحرب شهيدان في قرية المزرعة وقصص جوي على ريف حماة وريف حمص وتتزايد أعداد الشهداء حيث بلغ يومها فوق المائة شهيد قبل أذان الظهر واقتحامات واعتقالات في ريف دمشق وأخبار لا تترك تتأمل روعة ما ترى .. وهاهي السيارة تحط بنا عند أبواب المخيم ونستأنن للدخول فيرانا أطفال المخيم وترى على وجوههم بؤس التشرد والتهجير فقد مرروا بأشهر من التغريبة طويلة.. فيسرعون بعد أن رأوا بعض الألعاب التي حملناها لهم فيطير النبا بين أطفال المخيم البائسين وصلت الألعاب فيتسارعون لالتقاطها والبعض منهم حفاة وكلهم أدب مهالين فرحين فرحة الكبار عندما تعلن الأنباء سقوط النظام بإذن الله.

ويخرج إلينا الحاج محمد (وهو زوج أخت الخنساء) رجل في الخامسة والستين من عمره شيخ جليل لم يترك الدهر له شعرة سوداء في رأسه ولحيته يقبل علينا مهلاً مرحباً مبتسمًا رغم كل الألم والجراح التي جرحت قلبه ومزقت فؤاده فقد سجنها حافظ أسد ثلاثة وعشرين سنة أخذت منه زهرة عمره دون ذنب ارتكبه ومرت عليه صروف الدهر كشأن هذه العائلة المؤمنة الصابرة المحتسبة التي لم تدخل بالشهداء تلو الشهداء والمعتقلين زمن الأب وزمن الابن فقد اكتوت بيطش النظام وعاقب أهلهم بالفقر والتهميش والتجهيز فها هو الحاج مرقع الثوب بائس القسمات يعيش مع ستين فرداً من أبناء أسرته مشردين

مهجرين من بطش نظام الأسد الطائفي بعد أن قتل منهم أكثر من عشرة شهداء فلله درها من عائلة وأكرم بها من أسرة مجاهدة مقاومة صابرة مصرة على نيل حريتها وحرية بلدتها مهما كلفها ذلك من ثمن.

وأخذنا أبو محمد إلى خيمته .. ونمر في الطريق على خيام المؤس ويطل ساكنوها علينا يردون التحية مرحبين وكأن وجههم تحكي قصص الظلم وتبث عن يسمعها ويواسيها ويختلف عن جراحها وها هي الخنساء تخرج مكورة من خيمتها مرحبة مهلاة بنا دون سابق معرفة بنا مبتسمة رغم أنين الألم وبؤس التهجير وبدأت تسرد علينا ما لاقت من الظلم والبطش فقد قتل لها حافظ أسد زوجها وابنها الأكبر وسجين الثاني مؤبداً ثلاثة وعشرين سنة وبقيت لتربي الثلاثة الباقين وتحسن تربيتهن على الإيمان بالله والحافظ على الدين تقول لنا : (يا أولادي أهـم شيء في هذه الحياة هو العقيدة الصحيحة والإيمان بالله .. ) لا يفتؤ لسانها من الدعاء لله بالنصر وتسرد علينا قصة الشهيد الثالث من أبنائها وقصة الشهداء من أحفادها وخاصة منهم الشاب الذي كان خطاباً ولما نودي للجهاد لبـيـ النداء قالت له أمه يا ولدي أـمـا يـكـفـيـ هذه العائلة ما قدمـتـهـ من الشهداء فـيـأـبـيـ ويـصـرـ علىـ استـكـمالـ الطـرـيقـ وـالـذـهـابـ لـمـقارـاعـةـ الطـغاـةـ الـظـالـمـينـ وـحـمـاـيـةـ الـمـسـتـضـعـفـينـ منـ ظـلـمـ نـظـامـ طـائـفيـ فـاجـرـ بـغـيـضـ يـقـولـ يـأـمـيـ لـأـرـيدـ سـوـىـ الجـنـةـ دـعـيـنـيـ أـذـهـبـ!ـ وـلـمـ أـعـيـتـهاـ الـحـيـلـةـ لـجـأـتـ إـلـىـ جـدـتـهـ الـخـنـسـاءـ فـقـالـتـ إـنـ كـنـتـ يـاـ ولـدـيـ تـرـيـدـهـ بـصـدـقـ فـسـتـالـهـ.ـ قـالـتـ لـنـاـ أـمـ دـاـوـدـ:ـ يـاـ ولـدـيـ طـلـبـ الـجـنـةـ بـصـدـقـ فـنـالـ الشـهـادـةـ مـنـ أـوـلـ لـقـاءـ فـزـفـنـاهـ إـلـىـ الجـنـةـ ..ـ لـمـ أـتـمـالـكـ دـمـوعـيـ وـهـيـ تـسـرـدـ عـلـيـنـاـ هـذـاـ الـكـلـامـ بـرـضـيـ عـجـيـبـ بـقـضـاءـ اللـهـ وـقـدـرـهـ .ـ وـتـقـصـ لـنـاـ بـعـدـهـاـ قـصـصـ أـبـنـائـهـ الـمـجـاهـدـينـ الـآـخـرـينـ وـهـنـاـ تـغـلـبـهـاـ عـاـطـفـةـ الـأـمـوـمـةـ قـائـلـةـ يـاـ ولـدـيـ قـدـمـنـاـ الشـهـادـةـ تـلـوـ الشـهـادـةـ وـنـتـنـظـرـ الـفـرـحـةـ بـنـصـرـ اللـهـ الـقـرـيبـ ثـمـ أـخـبـرـتـنـاـ عـنـ نـشـاطـهـاـ فـيـ رـعـاـيـةـ الـأـيـتـامـ وـأـسـرـ الشـهـادـةـ فـيـ الدـاـخـلـ وـتـوـزـعـهـاـ لـكـتـبـ الـإـرـشـادـيـةـ وـالـمـصـاحـفـ وـمـدـىـ حـاجـةـ النـاسـ لـلـرـجـوعـ إـلـىـ رـبـهـ وـالـمـحـافـظـةـ عـلـىـ الصـلـاـةـ ثـمـ تـرـكـانـهـمـ لـنـصـلـيـ فـيـ مـسـجـدـ الـمـخـيمـ وـصـلـتـ مـعـ أـمـ عـمـروـ زـوـجـتـيـ جـمـاعـةـ مـعـ بـعـضـ نـسـاءـ الـمـخـيمـ.

حضرنا الصلاة في المخيم ولا تعلم بعدها سرور الناس بهذه الزيارة وحفاوتهم بنا وببعض الكتب والمصاحف التي حملناها لهم .. ثم طلبنا زيارة المرضى الموجودين في المخيم .. ومر بنا الحاج على بعض الخيام التي يسكنونها .. الله أكبر يا مسلمون الله أكبر يا عرب أعزت ميزانياتكم عن علاج هؤلاء الذين جرحا في الدفاع عنكم ضد المشروع الصهيوني اليهودي في المنطقة أعزت مستشفياتكم الفارهة عن استقبال هذه الأعداد البسيطة وانظروا إلى الصور لترروا حجم المأساة ومعاناة التي يعانونها، يهمس بي أحدهم يقول أنا صاحب معمل رخام وحالتي المادية ممتازة ولله الحمد وأصبت في فخذي وتهشم عظم الفخذ فها أنا قعيد الخيمة منذ أشهر أطلب فقط أن أعالج على حسابي في دول الخليج أو أوربة فالأطباء هنا من نفس طائفة النظام يتقددون إهمنا وકأنهم يكملون ما بدأه النظام نحن لا نريد صدقة من أحد فالنظام سرق جواز سفرى لذلك أنا هنا لاجئ !! وآخر كادت الغرغرinya أن تقطع رجله من الفخذ من الإهمال وآخر يعرج بسبب سوء العلاج أهـكـذاـ يـاـ أـحـبـابـنـاـ الـأـتـرـاـكـ يـكـونـ حـسـنـ الـجـوـارـ وـلـيـسـ عـلـىـ الـمـحـسـنـيـنـ مـنـ سـبـيلـ فـقـطـ نـرـيدـ مـنـكـمـ أـنـ تـسـمـحـوـ لـنـاـ بـعـالـجـ جـرـحـانـاـ !!ـ قـالـ لـنـاـ مـدـيرـ الـهـلـالـ الـأـحـمـرـ السـوـرـيـ بـحـمـاـةـ الـذـيـ هـرـبـ مـنـ بـطـشـ النـظـامـ بـسـبـبـ مـسـاعـدـتـهـ جـرـحـىـ الـثـورـةـ كـانـ النـظـامـ يـؤـكـدـ عـلـيـنـاـ عـدـمـ مـسـاعـدـةـ أـيـ جـرـحـيـ إـلـاـ بـعـدـ التـبـليـغـ عـنـهـ وـأـنـ الـمـسـاعـدـاتـ الـاـغـاثـيـةـ وـالـطـبـيـةـ تـصـرـفـ لـشـبـيـحـةـ النـظـامـ فـقـطـ وـكـانـ يـخـالـفـ هـذـهـ الـأـوـامـ حـتـىـ انـكـشـفـ أـمـرـهـ وـفـرـ هـارـبـاـ قـالـ:ـ سـأـلـتـنـيـ وـكـالـاتـ الـأـنـبـاءـ مـنـ تـلـقـيـتـ الـمـسـاعـدـاتـ قـالـ اـسـتـحـيـتـ أـنـ ذـكـرـ أـنـ النـظـامـ هـوـ مـنـ سـاعـدـنـاـ دـوـنـ أـنـ يـدـرـيـ وـأـنـ الشـعـبـ السـوـرـيـ يـذـبـحـ وـلـاـ يـجـدـ ضـمـادـاـ لـجـراـحـهـ!

ونرجع إلى خيمة الخنساء لنودعها فرحة مسروقة وكأنما أهدينا لها الحرية المنشودة طالبة منا تكرار الزيارة لتدخل الفرحة على قلوب البائسين..

لله درك يا أم داود ما أعظم بلاءك وابتلاءك .. كم أنت عظيمة، كم يستصغر المرء نفسه أمام تلك القامات، هكذا هن نساؤنا

المؤمنات .. ما أعظم إيمانك وصبرك .. إنه إيمان العجائز الذي كان علماؤنا يسألون الله أن يرزقهم إياه .. نحسبك كذلك ولا نزكي على الله أحدا ..

المصادر: